

## دور نظام البريد في المعارك والفتوحات الحربية في العصر المملوكي البحري

د. أنور عودة عؤاد الخالدي •

### المستخلص

يتناول ذلك البحث دور نظام البريد في المعارك والفتوحات الحربية في العصر المملوكي البحري ؛ فقد كانت الدولة المملوكية عبارة عن حلقات متناثرة ربط بينها ذلك النظام البريدي المتكامل الذي وضع أساسه السلطان الظاهر بيبرس في عصر اشتدت فيه الهجمات المغولية والصليبية على حدود الدولة المملوكية ، وهو ما استدعى أن يتم جلب الأخبار من مواطن الصراع إلي مقر السلطة في قلعة الجبل بالقاهرة بأقصى سرعة ليتم تحريك الجيش بناء على تلك الأخبار الواردة ؛ ومن خلال البحث ثبت مدى نجاح ذلك النظام في انتصار المماليك في الكثير من المعارك الحربية ضد الصليبيين والمغول.

---

• أستاذ التاريخ المشارك- جامعة آل البيت ،المملكة الأردنية الهاشمية

## نشأة نظام البريد على يد الظاهر بيبرس:

يعتبر عهد الظاهر بيبرس من أزهى عهود البريد حيث حظى بعنايته لدرجة جعلت منه إدارة مستقلة بذاتها، كانت بمثابة همزة الوصل بين مركز القيادة في قلعة الجبل بالقاهرة وسائر الولايات ببلاد الشام والحجاز واليمن بل وداخل الحدود المصرية ذاتها، ويكفي دراسة نظام البريد بصوره المتنوعة في عهده كمثال حقيقي لدراسته في تاريخ مصر الإسلامية، لأن من تلاه من السلاطين قد ساروا على نهجه في العناية بهذا النظام، فظلت سلطتهم المركزية قوية على سائر الولايات.

وكان هدف بيبرس الأول من نظام البريد هو خدمة المصالح العليا للدولة، وذلك على غير ما وجدنا عليه أحوال البريد فيما قبل، فأصبح منذ عهده الأداة التي يستطيع عن طريقها تفقد أحوال سائر الأقاليم المختلفة، حيث صارت أخبارهم ترد إليه وتعرض عليه مرتين في الأسبوع فيطلع على ما يقوم به نواب السلطنة بكافة أنحاء البلاد، وبذا يتحكم في سائرهم فيولي من يشاء ويعزل من يشاء<sup>1</sup>.

وحقيقة لم يوجه أحد من السلاطين. قبل عهد بيبرس - عنايته بالبريد، حيث كان البريدي يقطع المسافة من القاهرة إلى دمشق في سبعة أيام<sup>2</sup>، ثم كان عليه الانتظار مدة من الزمن حتى يجد من يأخذ منه الرسالة، ثم ينتظر مدة أخرى حتى يتم إعداد الجواب المناسب لها، ويقوم السلطان بتوقيعه، ثم يعطي إليه في النهاية مما يترتب على هذا التأخير ضياع كثير من الأمور الهامة<sup>3</sup>.

ولما اعتلى الظاهر بيبرس عرش السلطنة قام بترتيب وتنظيم البريد على جميع الطرق والمراكز بحيث أنه أصبح في الإمكان وصول الأخبار من القاهرة إلى دمشق في غضون أربعة أيام والعودة في مثلها<sup>4</sup>، ثم رغب في تقليل هذه المدة فركب البريد بنفسه من القاهرة إلى دمشق فوصلها في ثلاثة أيام، وألزم البريدية بذلك وتوعد من يزيد عليها بعقوبة الصلب<sup>5</sup>، رغم أن الجيوش كانت عادة ما تقطعها في مدة شهر تقريباً<sup>6</sup>.

ففي سنة 670هـ/1271م وردت الأخبار إلى بيبرس بإغارة المغول على عين تاب، فبعث البريد إلى القاهرة لتجهيز الجيش المملوكي، فخرج من دمشق نهار يوم الأحد الثامن عشر من شهر ربيع الأول، فوصل القاهرة نهار يوم الأربعاء الحادي والعشرون من نفس الشهر<sup>7</sup>، وبعد ذلك بأربعة أعوام أي في سنة 674هـ/1275م، وبينما كان الظاهر بيبرس بدمشق إذ أرسل البريد لإحضار ابنه الملك السعيد من القاهرة فخرج البريد من دمشق قبيل غروب شمس يوم الرابع والعشرون من شهر المحرم، فوصل القاهرة قبيل غروب شمس يوم السابع والعشرون من نفس الشهر<sup>8</sup>.

كذلك صار البريدي في عهده يقطع المسافة من القاهرة إلى الكرك في ثلاثة أيام، وإلى البيرة. على حدود نهر الفرات. في ستة أيام، وإلى عين تاب على حدود بلاد الروم في عشرة أيام، وإلى بلاد سيبس في سبعة أيام، وإلى حلب في خمسة أيام<sup>9</sup>، وأحياناً في أربعة أيام<sup>10</sup>، أما داخل الحدود المصرية فكان البريدي يقطع المسافة من القاهرة إلى قوص في ثلاثة أيام، وإلى ثغر

<sup>1</sup> المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1 ق 2، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة 1934، ص 446؛ الخطط المقرئزية، ج1، مطبعة النيل القاهرة 1326، ص367؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة 1311هـ، ج1، ص 108؛ Thourau, The Lion of Egypt Sultan Baybars, Trans. P.M. Holt, New York 1987, P. 104; Fouad Abou Khater, Shagar al\_Dorr et Baibars, Le Caire 1951, P. 221; Mustafa, M. Ziada, The Mamluk Sultans to 1293, in Book of: Setton, A History of the Crusades, II, Pennsylvania 1969, P.747; Wiet, Histoire de la nation égyptienne, IV, Paris 1937, P. 436 Syedah Sadeque, Development of Al-Barid, or Mail-post during the Reign of Baybars I of Egypt (1260-1276) JASP, 14, P. 169. (1969)

<sup>2</sup> ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بغداد 1351 هـ، ص 392، Sourdell, Art: Barid, El<sup>2</sup>, I, Leiden 1986. P. 104

<sup>3</sup> ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر سيدة صادق، باكستان 1956م، ص 32؛ Thorau, The Lion of Egypt, P. 104

<sup>4</sup> ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص32؛ المقرئزي، السلوك، ج 1- ق2 ص446؛ اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، القاهرة 1314هـ، ج2، ص 168؛ طه الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، بيروت 1981، ص 247؛ Wiet, Histoire de la nation, IV, P. 436; Thorau, The Lion of Egypt, P. 103; Amitai, P., Mongols and Mmluks (1260-1281), Combridge 1995, P.74.

<sup>5</sup> ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص 392.  
<sup>6</sup> أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، مطبعة النيل القاهرة (128-1288هـ)، ج2، ص 28؛ Popper, Egypt and Syria under the Circassian Sultans(1382-1468), Systemati Notes, vol. I, Los Angles 1955. p.45.

<sup>7</sup> المقرئزي، السلوك، ج1 ق2، ص 600.  
<sup>8</sup> ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، تحقيق: أحمد حطيط، فيسبادن 1983، ص 120، ذكر ابن شداد هنا أن دخول البريد القاهرة كان يوم الأربعاء، ثم مكث بها أربعة أيام وخرج منها يوم السبت، والصواب أن دخوله كان يوم الثلاثاء، فلو مكث بالقاهرة أربعة أيام من يوم الأربعاء، لكان خروجه منها يوم الأحد، كما أن خروج البريد من دمشق يوم السبت 24 محرم لا يتفق زمنياً مع يوم الأربعاء 27 محرم.

<sup>9</sup> ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص 313؛ Syedah Sadeque, Development of Al-Barid, p.173.  
<sup>10</sup> الأنصاري، تفرج الكروب، ص 14.

الإسكندرية في خلال يوم واحد<sup>11</sup>.

ومما لا شك فيه أنّ الظاهر بيبرس لم يأل جهداً ولا مالاً في سبيل تنظيم ذلك الجهاز، حيث أنفق عليه أموالاً طائلة لا حصر لها، توزعت ما بين نفقات بناء مراكز البريد، وأموال الوقف المخصصة لها، ومرتببات عمال البريد، وبلغ من كثرتها أنها كانت كافية لملاء خزانة أحد السلاطين<sup>12</sup>.

هذا وقد كان للظروف العسكرية التي منيت بها المنطقة عظيم الأثر في توجيه الظاهر بيبرس جلّ عنايته لهذا الجهاز، لمواجهة مشكلة اتساع المملكة والعمل على تأمين وسرعة قضاء الأعمال الخاصة بالسلطان، وتدعيم النظام الإداري، فعمل على إيجاد خدمة بريدية دائمة تعمل على سهولة وصول الرسائل في مسافات وأوقات مناسبة في إطار السرية والأمن المطلوب، كي يمكن التعرف على الأخبار والجوانب الأساسية في الدولة المملوكية<sup>13</sup>.

وهنا يتبادر إلى أذهاننا تساؤل وهو هل اقتصر الظاهر بيبرس على إحياء نظام البريد الذي كان موجوداً لدى أسلافه الخلفاء؟ أم أنه نقله قلباً وقالباً عن المغول الذين كان لديهم هذا النظام وبدرجة عالية من الكفاءة؟ أم أنّ البريد المملوكي كان من صنع الظاهر بيبرس ذاته؟

حقيقة لقد كان البريد المملوكي يمثل تطوراً واستمراراً لبريد الخلفاء، غير أنّ إنجاز الظاهر بيبرس له لم يكن محدوداً أو قاصراً على مجرد إعادة تنظيم كيان أصابه الانهيار<sup>14</sup>، فنظام البريد معروف لدينا منذ العصور الإسلامية المبكرة إلا أنّ الإهمال تطرق إليه قبل عهد الظاهر بيبرس بحوالي ثلاثة قرون تقريباً<sup>15</sup>، حيث تم قطعه على يد البويهيين في منتصف القرن الرابع الهجري/ منتصف العاشر الميلادي، لحرمان الخليفة من أكفا وسائل الاتصال حتى يتسنى لهم وضعه تحت وصايتهم، ومن بعدهم لم يجد السلاجقة أمامهم وسيلة سوى الرسل، أما آل زنكي فقد اعتمدوا على النجابة "الهجن" التي ظلت حتى نهاية الدولة الأيوبية<sup>16</sup>.

ويرى سوفاجيه- Sauvaget<sup>17</sup> أنّ الظاهر بيبرس هو المبتدع لنظام البريد، وأنه لم يستثمر أي مشروع من قبل أسلافه الخلفاء، معتمداً في ذلك على صمت مؤرخي فترة الحروب الصليبية حول هذا النظام، حيث لم يكن لديهم أية معلومات سوى عن استخدام الحمام الزاجل في العصرين الفاطمي والأيوبي، وبعض الاستثناءات مثل إرسال رسول برسالة، مما يرجح أنّ بيبرس قام بأكثر من مجرد إعادة تأسيس، أو إعادة تنظيم سير العمل في نظام أصابته الفوضى، كما أعاد إلى البريد خاصية الدولة، وهي التي فقدتها على مدي ثلاثين عاماً، وقام بتنظيمها من كل الجوانب وليس فقط تبنى وتطوير ما ورثه عن أسلافه الخلفاء.

وبالرغم من آراء سوفاجيه التي تجعل العمل الذي قام به بيبرس يوضع في عداد التجديد والخلق الحقيقي، إلا أنه يسوق لنا رواية ابن فضل الله العمري، التي توضح مدى استحسان بيبرس لبريد أسلافه الخلفاء، بل وأمره بالشروع في تأسيسه فيقول "ولما صار الملك إلى الملك الظاهر بيبرس، واجتمع له ملك مصر والشام وحلب إلى الفرات، وأراد تجهيز دولته إلى دمشق، فعين لها نائباً ووزيراً وقاضياً وكتاباً للإنشاء، وكان عمه الصاحب شرف الدين محمد عبد الوهاب هو كاتب الإنشاء، فلما مثل لديه ليودعه أوصاه بوصايا كثيرة أكدها مواصلته بالأخبار، وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج، وقال له إنّ قدرت أن لا تبينتي كل ليلة إلا على خبر، ولا تصبحني إلا على خبر فافعل، فعرض له بما كان عليه البريد في الزمان الأول وأيام الخلفاء وعرضه عليه، فحسن موقعه منه وأمر به"<sup>18</sup>.

وهكذا كان نظام البريد في عهد الظاهر بيبرس - من وجهة نظر سوفاجيه - شيئاً متطوراً عن بريد الخلفاء، وإيجاده

<sup>11</sup> ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص 313، لا يبدو مثيراً للدهشة أن يقطع البريدي المسافة بين القاهرة وقوص في ثلاثة أيام، فالمسافة بينهما 406 ميل، وهي أكبر من مثيلتها بين القاهرة والكرك 380 ميل، ومع ذلك فالبريدي يقطع المسافتين في مدة زمنية واحدة، كما أن صغر المسافة بين القاهرة والإسكندرية (144 ميل طريق الحاجر) و(142 ميل الطريق الوسطي) جعلت البريدي يقطعها في يوم واحد فقط انظر، Popper, Systematic Notes, p.46

<sup>12</sup> ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 32.

<sup>13</sup> Wiet, Histoire de la nation, IV, P.435

<sup>14</sup> Sauvaget, La Post aux chevaux dans l'empire des mamelouks, Paris, 1941., P. 10.

<sup>15</sup> Ayalon, On One of the Works of Jean Sauvaget, IOS, I, (1971), P. 300.

<sup>16</sup> Sauvaget, La post, PP. 10-11; Syedah Sadeque, Development of Al-Barid, p.170.

<sup>17</sup> Sauvaget, La Post, PP. 11-12

<sup>18</sup> العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت 1988م، ص 242؛ القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج 14 جزء طبعة المطبعة الأميرية بالقاهرة 1913-1918م، ص 370؛ فايد حماد عاشور، التنظيمات العسكرية المغولية والمملوكية، رسالة دكتوراه غير منشورة بأداب عين شمس، القاهرة 1972، ص 222؛ Sauvage, La Post, P.12

هذه المرة شيئاً مختلفاً، فقد صار نظاماً متكاملماً لا يتوقف تنظيمه، وأداء وظائفه على مجرد ما كان قائماً من قبل<sup>19</sup>.

والجدير بالذكر أنّ جهاز البريد لم يكن منذ نشأته ذا علاقة بأى شيء سوى بالدولة، وبالسلطان نفسه، حيث كانت طرق المواصلات الخاصة بتلك الخدمة حكراً على السلطان وأمراءه بالدرجة الأولى، لدرجة أنه ساد شعور بين طبقات الشعب أنّ طريق البريد هو "طريق السلطان"<sup>20</sup>، وكفى على سبيل المثال ما ذكره الفيومي في حوادث سنة 742هـ/1341م من أنّ الناصر أحمد حينما وصل إلى قلعة الجبل بالقاهرة، قادماً إليها من الكرك كان حضوره من "طريق البريد ولم يسلك الدرب الشامي"<sup>21</sup>، ونتيجة لذلك كان جهاز البريد في العصر المملوكي البحري مخصصاً لما يعرف "بالمهمات السلطانية"، من قبيل نقل الأخبار والمعلومات، والأوامر ذات الطابع الحربي، والمراسلات الدبلوماسية من وإلى السلطان، وإرسال السفارات الرسمية إلى الملوك الأجانب<sup>22</sup>، ففي سنة 737هـ/1336م سافر سارطقاي مقدم البريدية بمصر رسولاً من قبل الناصر محمد بن قلاوون، ومحملاً بالهدايا العظيمة إلى أربك ملك الروم<sup>23</sup>، أضف إلى ذلك اختصاص البريد ببعض الوظائف ذات الطابع الخاص مثل: نفي الأمراء والقضاة وغيرهم، أو استدعائهم للمثول بين يدي السلطان شخصياً لاستجوابهم فيما نسب إليهم<sup>24</sup>، ناهيك عن الدور الأساسي الذي لعبه جهاز البريد في المعارك والفتوحات الحربية، وهو ما سوف نعرض له الآن.

لعب جهاز البريد بأنواعه المختلفة دوراً فعالاً من خلال المعارك والفتوحات الحربية ضد المغول والصليبيين في العصر المملوكي البحري، حيث وقع على عاتقه نقل أخبار إغاراتهم المستمرة على حدود الدولة المملوكية، وكذلك خططهم القتالية، إلى مقر السلطة المركزية بقلعة الجبل بالقاهرة، وهو ما أعطى لسلطين المماليك حق المبادرة في مباغتتهم أثناء تلك المعارك، وإحراز النصر الذي يترتب عليه سريان الطمأنينة بين كافة طبقات الشعب.

هذا وقد جرت العادة أنّ يطالع نواب السلطنة في سائر الولايات، سلاطين المماليك بالعاصمة بكل ما يتجدد عندهم من أخبار على أيدي البريدية تارة، وعلى أجنحة الحمام الزاجل تارة أخرى<sup>25</sup>، ومرجع ذلك إلى اهتمام سلاطين المماليك بالأخبار والمعلومات، وحرصهم على تواترها إليهم باستمرار، فمثلاً: كان الظاهر بيبرس كثير الاهتمام بالاطلاع على أخبار أمرائه وأعيان دولته حتى أنه لم يخف عليه منها صغيرة ولا كبيرة<sup>26</sup>، كما كان خفيف الركاب والحركة، جباراً في الأسفار والفتوحات، دائم الانتقال بين أنحاء دولته صيفاً وشتاءً<sup>27</sup>، وكان يبدو كأنه في عدة أماكن في وقت واحد، ذلك أنّ رحلاته كانت تتسم بالسرية، ومن الحيل المحببة إليه أنه كان يظل مختفياً في القلعة لبضعة أيام يراقب أعمال نوابه، في الوقت الذي يسود فيه الاعتقاد بأنه قد سافر إلى بلاد الشام<sup>28</sup>، ولذلك كانت أخبار دولته المترامية الأطراف والممتدة من أطراف حلب إلى أطراف النوبة، ترد عليه بكرة وعشياً<sup>29</sup>، وقيل في تردده بين سائر الولايات: يوماً بمصر، ويوماً بالشام وبالفرات يوماً، ويوم في قرى حلب<sup>30</sup>.

ومما لا شك فيه أنّ جهاز البريد لعب دوراً حيوياً في إعلان حالة الطوارئ القصوى للجيش المملوكي إبان ذلك العصر، حيث كانت الأوامر والمراسيم تخرج من قبل سلاطين المماليك على أيدي البريدية بتجهيزه وجعله على أهبة الاستعداد في حالة طرق المغول أو الصليبيين لحدود المملكة وإغاراتهم عليها، فحينما وردت الأخبار إلى الظاهر بيبرس في سنة 662هـ/1263م بإغارة "هيثوم" ملك الأرمن على بلدة "هرقلة"، ومحاصرته لقلعة صرفند، خرجت أوامره في الحال على أيدي البريدية إلى نواب السلطنة في حمص وحماة بسرعة تجهيز الجيش والزحف به نحو حلب، ومنع قبائل العربان ببلاد الشام

<sup>19</sup> Sauvaget. La Post , P. 13.

<sup>20</sup> Sauvaget , La Post , P.16 ; Syedah Sadeque , Development of Al-Barid , P.17

<sup>21</sup> الفيومي ، نثر الجمال في تاريخ الأعيان (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 1746 تاريخ) ، ج5 ، ورقة 86 .

<sup>22</sup> Sauvaget , La Post ., P.15

<sup>23</sup> المقریزی ، السلوك ، ج 2-ق 2 ، ص 423 ، 457.

<sup>24</sup> Sauvaget , La post , P.15 .

<sup>25</sup> الأسدي ، التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار ، تحقيق عبدالقادر طلبيات ، القاهرة 1967م ، ص 154؛ المقریزی ، الخطط ، ج3 ، ص 343؛ القلقشندی ، صبح ، ج4 ، ص 59.

<sup>26</sup> ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر ، ص 311 ؛ النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج 30 تحقيق محمد عبدالهادي شعيرة ، مراجعة محمد مصطفى زيادة ، القاهرة 1990م ، ص 260؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج7 ، طبعة دار الكتب المصرية القاهرة 1950م ، ص 177 ، 182 .

<sup>27</sup> الفيومي ، نثر الجمال ، ج5 ، ورقة 70؛ المقریزی ، السلوك ، ج 1-ق 2 ، ص 637؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج 1- ص 110 .

<sup>28</sup> بيبرس الوادار ، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ج9 ، تحقيق زبيدة عطا ، الرياض 1989م ، ص 91 ؛ فؤاد الصياد ، الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، النوحة 1987م ، ص 89.

<sup>29</sup> ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر ، ص 313 .

<sup>30</sup> الواداري ، كنز الدرر وجامع الغرر ، ج8 ، تحقيق : أولرخ هارمان ، القاهرة 1971، ص 211 ؛ المقریزی ، السلوك ، ج 1-ق 2 ، ص 638؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج 1 ، ص 108 ؛ الحلبي ، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، حلب 1984 ، ج2 ، ص 318 ؛ موير ، تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عابدين ، سليم حسن ، القاهرة 1990 ، ص 59 .

من الخروج إلى البرية حتى يتسنى لهم المشاركة مع الجيش المملوكي، والذي التقى بالجيش الأرمني، وقام بتكبيده خسارة فادحة<sup>31</sup>، وفي نفس السنة - أي في سنة 662هـ/1263م- خرجت الأوامر من قبل الظاهر بيبرس على أيدي البريدية بتجهيز الجيش والخروج به للإغارة على "عتليت وقيسارية"، فتوجه الأمير ناصر الدين القيصري به حتى وصل إلى أبواب عتليت، فأعمل فيها القتل والنهب والأسر، ثم توجه منها إلى قيسارية فلم تكن بأحسن حالاً من عتليت<sup>32</sup>.

وفي سنة 666هـ/1267م خرج الظاهر بيبرس في رحلة صيد، وبالرغم من ذلك ظلت الأخبار تتواتر إليه باستمرار عن أحوال مملكته، فبلغته الأخبار عن قيام المغول بالإغارة على مدينة حلب، فأصدر أوامره على أيدي البريدية بتجهيز الجيش المملوكي والخروج به إلى بلاد الشام<sup>33</sup>.

وفي بعض الأحيان كانت الأخبار تقطع الشك باليقين لدى بعض سلاطين المماليك، فحينما وصلت الأخبار إلى الظاهر بيبرس في سنة 668هـ/1269م بزحف المغول نحو البيرة والرحبة، أسرع بتجهيز الجيش المملوكي، وتوجه به إلى بلاد الشام بعزيمة لا تكل أو تهدأ، ولكنه وقع في حيرة حول أي الجهتين يقصد البيرة أم الرحبة؟ ولكنه لم يلبث على حيرته تلك طويلاً حيث وردت عليه الأخبار الصحيحة والمؤكدة مرة أخرى برحيل المغول عن الرحبة، فقام بتركيز جل اهتمامه ناحية قلعة البيرة<sup>34</sup>.

وفي سنة 671هـ/1272م خرج الظاهر بيبرس لتفقد أحوال المملكة ببلاد الشام، وحينما استقر بها تواترت إليه الأخبار بإغارة المغول على قلعة البيرة، فعاد مسرعاً على خيل البريد إلى قلعة الجبل بالقاهرة بصحبة الأمير علم الدين شقير مقدم البريدية، لتجهيز الجيش المملوكي، والزحف به نحو بلاد الشام لمحاربة المغول<sup>35</sup>.

وفي سنة 691هـ/1291م واصل المغول غاراتهم على حدود الدولة، فقاموا بالإغارة على قلعة الرحبة، فخرج البريد مسرعاً ليطلع السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بتلك الأخبار، والذي أصدر أوامره في الحال بتجهيز الجيش المملوكي وخروجه إلى دمشق لدرء هذا الخطر، ولكنهم وصلوا إليها بعد نهب المغول لها<sup>36</sup>.

وفي سنة 698هـ/1298م وصلت الأخبار إلى الناصر محمد بن قلاوون، بإغارة المغول على حدود بلاد الشام فأمر بتجهيز الجيش المصري، ثم أرسل بعض الأمراء على خيل البريد إلى الأمير قبجق نائب السلطنة بدمشق لتجهيز الجيش الشامي والتوجه به صوب حلب<sup>37</sup>، كما أرسل إلى الملك المظفر صاحب حماة بتجهيز جيشه هو الآخر، فخرج به من حماة حتى وصل إلى "معرة النعمان"، ثم حدث تراخي في وصول الأخبار إليه فعاد أدراجه مرة أخرى إلى حماة، ثم لم يلبث أن وردت عليه الأخبار بتحريك الجيش ثانية، فكان الجيش المملوكي بحماة صار "رهيناً بوصول الأخبار"<sup>38</sup>.

وفي سنة 702هـ/1302م وصلت الأخبار على أيدي البريدية من حلب بأن غازان خان ملك المغول قد قرر الزحف على بلاد الشام، وأنه وصل بجيشه إلى نهر الفرات وأصبح على مشارف قلعة الرحبة، فاتفق الناصر محمد بن قلاوون مع الأمراء على تجهيز الجيش وخروجه صوب بلاد الشام<sup>39</sup>، ثم لم يلبث المغول أن كرروا محاولتهم الإغارة على حدود المملكة مرة أخرى في سنة 708هـ/1308م فقام البريدية بحلب بنقل تلك الأخبار إلى الناصر محمد الذي سارع بتجهيز الجيش وخرج به لملاقاتهم، هذا والأخبار تتواتر عليه أثناء الطري، حيث هبط الحمام الزاجل عليه بالبطائق ليخبره بأن المغول قاموا بنهب قلعة كركر، فاستمر الجيش المملوكي في زحفه حتى لحق بالجيش المغولي وألحق به هزيمة منكرة، وقام باسترداد ما استولوا عليه من قلعة كركر<sup>40</sup>، ثم حاول المغول في عهد ملكهم القوي خدابنده الثار لهزائمهم المتواصلة، فقاموا بالإغارة على مدينة الرحبة في سنة 712هـ/1312م، وحينما وصلت تلك الأخبار إلى الناصر محمد أصدر أوامره إلى نواب السلطنة ببلاد الشام بتجهيز الجيش المملوكي، ولكن لم يلبث أن جاء البريدية بأخبار رحيل المغول عن الرحبة بعد حصارها ما يقرب من شهر<sup>41</sup>، وكان أبو الفدا-

<sup>31</sup> المقریزی، السلوك، ج1 ق2، ص511، 510.

<sup>32</sup> المقریزی، السلوك، ج1 ق2، ص513.

<sup>33</sup> المقریزی، السلوك، ج1 ق2، ص564.

<sup>34</sup> شافع بن علي، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، الرياض 1976م، ص151.

<sup>35</sup> المقریزی، السلوك، ج1 ق2، ص604-605.

<sup>36</sup> النويري، نهاية الأرب، ج31، ص243؛ المقریزی، السلوك، ج1 ق3، ص777؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات المعروف بـ "تاريخ الدول والملوك"، ج8 تحقيق قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، بيروت 1939، ص135.

<sup>37</sup> المقریزی، السلوك، ج1 ق3، ص852.

<sup>38</sup> أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، مج2 ج7، طبعة بيروت 1961م، القاهرة 1325هـ، ص50.

<sup>39</sup> المقریزی، السلوك، ج1 ق3، ص930.

<sup>40</sup> المقریزی، السلوك، ج2 ق1، ص42.

<sup>41</sup> المقریزی، السلوك، ج2 ق1، ص119؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص34، 35.

المؤرخ الشهير صاحب حماة بمجرد أن وصل إليه الأمر بتجهيز الجيش، نجد أنه سارع بالخروج به حتى وصل مشارف حلب ، ثم أرسل الكشافة لحصد الأخبار عن تحركات المغول<sup>42</sup>.

وفي أواخر سنة 714هـ/1315م خرجت الأوامر من قبل الناصر محمد بن قلاوون على أيدي البريدية إلى الأمير تنكز نائب السلطنة بدمشق، بتجهيز الجيش المملوكي والتوجه به صوب حلب، فتوجه به مع مطلع سنة 715هـ/1315م قاصداً "ملطية" في بلاد الروم، فحضر عليها الحصار حتى سقطت في يده وعاد الجيش أدراجه إلى دمشق<sup>43</sup>، ثم خرج الأمير سيف الدين فجليس على خيل البريد إلى قلعة الجبل بالقاهرة لبطانة الناصر محمد بهذا الفتح<sup>44</sup>، ولم يمر وقت طويل على هذا الفتح حتى وصل البريدية إلى الناصر محمد في نفس السنة - أي في سنة 715هـ/1325م - بأخبار فتح الجيش المملوكي بحلب - لقلعة "درنده" المجاورة لملطية وتدميرها<sup>45</sup>.

هذا وقد جرت العادة أن يتكاتف البريد البري مع بريد الحمام الزاجل في نقل الأخبار والمعلومات من أقصى مدن المواجهة مع المغول والصليبيين في البيرة والرحبة، إلى دمشق وغزة وقلعة الجبل بالقاهرة، ضمناً لتأكيد صحة هذه الأخبار وسرعة توصيلها وهو ما يعرف "بالبريد المزدوج"<sup>46</sup>، وقد لعب هذا النوع دوراً مؤثراً وحيوياً خلال المعارك والفتوحات الحربية في العصر المملوكي البحري ، ففي سنة 663هـ/1265م وردت الأخبار إلى الظاهر بيبرس على أيدي البريدية ، بحصار المغول لقلعة البيرة أهم القلاع المملوكية على نهر الفرات. فخرج في الحال على رأس الجيش المملوكي إلى بلاد الشام، هذا والأخبار تتواتر عليه باستمرار بأن المغول قاموا بنصب المجانيق<sup>47</sup> على القلعة، إلى أن وصل إلى "بيني"، ومن الطريف أنه لم يكذب حاله بها حتى ورد عليه البريد من نائب السلطنة بدمشق، وكان بيبرس آنذاك بالحمام وقت وصوله، ومع ذلك فقد أصر على أن يقرأ عليه حتى يطمئن بنفسه على الموقف في البيرة ، وكان أن قرئ عليه الكتاب وهو عريان في الحمام<sup>48</sup> ، فإذا به يتضمن أن الملك المنصور صاحب حماة قد خرج على رأس جيشه إلى قلعة البيرة بصحبة القوات التي أرسلها بيبرس إليه، فلما رأى المغول تلك الجموع الكبيرة، تركوا حصار القلعة، وفروا إلى بلادهم، حينئذ قام نائب البيرة بكتابة بطاقة على جناح الحمام الزاجل بتلك الأخبار، أخذت تشق عنان السماء حتى وصلت إلى حماة، ومنها إلى دمشق التي قام نائب السلطنة بها بإرسالها على خيل البريد وبواسطة أحد البريدية إلى السلطان في مقره "بيبيني" حيث قرأت عليه<sup>49</sup>.

هذا وقد تجلت أروع صور نقل الأخبار في عهد المنصور قلاوون، الذي سار على نهج الظاهر بيبرس في العناية بجهاز البريد، وظهر ذلك واضحا خلال معركة حمص سنة 680هـ/1281م حين تعاون جهاز البريد بكافة أنواعه ضد المغول بحيث قلب موازين المعركة لصالح المماليك، وكان المغول قد جمعوا حشوداً هائلة، ووضعوا خططهم الحربية، دون أن يفتنوا إلى وجود أحد "عيون" المنصور قلاوون بين ثنايا صفوفهم، فبينما كان الفريقان على أهبة الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة، إذا بأحد الجنود يقفز من معسكر المغول إلى حماة ويطلب من نائبها أن يقوم في الحال بإرسال بطاقة على جناح الحمام الزاجل إلى المنصور قلاوون يخبره فيها بأن عدد جيش المغول ثمانون ألفاً، وأن ميمنتهم قوية، وهم عازمون على اختراق قلب الجيش المملوكي، ولم يكتف ذلك الشخص بنقل الأخبار فحسب ، بل إنه تعدى ذلك إلى وضع الخطة القتالية للجيش المملوكي ضد نظيره المغولي، فطلب من السلطان أن يقوى ميسرة الجيش، ويحترز على المؤخرة، وبالفعل شق الحمام الزاجل عنان السماء حاملاً تلك الأخبار إلى السلطان الذي لم يتوان عن تنفيذ كل ما جاء بها من معلومات، ووضعها موضع التنفيذ، فكان النصر

<sup>42</sup> أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، مج 2 ج7 ، ص82 .

<sup>43</sup> ابن أبي الفضائل ، تاريخ سلاطين المماليك أو النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، نشره وترجمه للفرنسية وعلق عليه E.Blouchet, Patrologia Orientalis, XII, XIV, XXII, Paris, 1919. ، ص749،751 ؛ الصغد ، أعيان العصر وأعوان النصر، ج 1 ، إصدار فؤاد سركين ج ، فرانكفورت 1990م

فرانكفورت ج ، ص286 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج14 ، ط القاهرة 1358م ، ص73،71 .

<sup>44</sup> مجهول ، تاريخ سلاطين المماليك ، تحقيق زيترشتين ، ليدن 1919م ، ص162 .

<sup>45</sup> ابن أبي الفضائل ، النهج السديد ، ص760 .

<sup>46</sup> Thorau , The Lion of Egypt , P.105 ; Syedah sadeque, Development of Barid, P.182

<sup>47</sup> اسم أعجمي لأن الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية ، وهي من أسلحة الحصار ، وتقدمت صناعتها على أيدي المماليك ، ويوجد منها أنواع عديدة مثل المنجنيق ذو الزيار ، ومنجنيق الشعر ، والمنجنيق المقلاع وغيرها للمزيد عنها أنظر القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج2 ،

ص143 ؛ على إبراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص ، القاهرة 1944م ، ص309 ؛ أحمد عبد الرزاق ، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ج1 ، القاهرة 1990م ، ص201 .

<sup>48</sup> ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص120-121 ؛ شافع بن علي ، حسن المناقب ، ص87 ؛ المقرئ ، السلوك ، ج1 ق2 ،

ص523-524 ؛ Sauvaget , La Post , P.17 ; Thorau , The Lion , P.105 .

<sup>49</sup> ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص121 ؛ بيبرس الدوادار ، مختار الأخبار ، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان ، القاهرة 1993م ، ص29 ؛

النويري ، نهاية الأرب ، ج30 ، ص263 ؛ ابن أبي الفضائل ، النهج السديد ، ص331-332 ؛ المقرئ ، السلوك ، ج1 ق2 ، ص524

؛ العيني ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ج1 ، تحقيق محمد أمين ، دار الكتب المصرية ، ص396 هذا وقد ذكر شافع بن علي أن ا

لظاهر بيبرس حين ورد عليه البريد كان في "بيسان" انظر ، شافع بن علي ، حسن المناقب ، ص87 .

حليف المماليك، وانقلب المغول على أعقابهم مهزومين بعد أنّ وضعوا نهايتهم بأيديهم، وخرج الحمام الزاجل حاملاً بطائق النصر في معركة حمص من "القرتين" إلى دمشق، ثم توالى قدوم البريدية بأخبار النصر أيضاً إلى قلعة الجبل

بالقاهرة، وبذلك سرت الطمأنينة بين كافة طبقات الشعب، وأقيمت الزينة في سائر نواحي المملكة<sup>50</sup>، وبعد انتهاء المعركة وصلت الأخبار مرة أخرى على جناح الحمام الزاجل من داخل حصن الأكراد إلى المنصور قلاوون بأنّ المغول قرروا إرسال فرقة من جيشهم المهزوم إلى داخل طرابلس للانتقاض على مؤخرة الجيش المملوكي، فأعطى السلطان أوامره إلى نائب طرابلس بعدم مغادرتها مطلقاً، وعليه أنّ يرسل الحمام الزاجل بالبطائق حال رؤية تلك الفرقة المغولية، وبالفعل وصل الحمام الزاجل إلى السلطان بأخبار خروج مجموعة من الأشخاص في زي المغول، ولكن وردت الأخبار المؤكدة والصحيحة إلى المنصور قلاوون من المكاتبين والمناصحين بطرابلس، بأنّ ذلك لم يكن إلا خدعة من الصليبيين الذين تنكروا بزي المغول لإحداث التشويش والاضطراب داخل صفوف المماليك<sup>51</sup>.

وهنا تطالعنا المصادر المملوكية بظاهرة طريفة، حيث جرت العادة عند انتصار الجيش المملوكي في إحدى المعارك الحربية، أو القيام بفتح إحدى القلاع والحصون، أنّ يقوم القادة بتسريح الحمام الزاجل بالبطائق عقب انتهاء المعركة، على أنّ يكون هذا الحمام أزرق أو أبيض اللون، ومحلى هو والبطائق بأجود أنواع المسك والعطور الزكية مثل الزعفران، كإشارة إلى النصر على العدو، حتى إذا ما رآه الناس عن بعد سرت الطمأنينة بينهم، وأقاموا الزينة في سائر البلاد<sup>52</sup>، وذلك على النقيض تماماً في حالة انتكاستهم حيث كان الحمام الزاجل يطبخ بالسواد، بحيث تصير رؤيته دليلاً على هزيمة الجيش المملوكي، وبالتالي سريان الخوف والاضطراب بين الناس وليس أدل على ذلك مما وقع خلال معركة حمص سنة 680هـ/1281م في عهد المنصور قلاوون حين مني المماليك بالهزيمة في أول الأمر، فسرحت الطيور بالبطائق وهي ملطخة بالسواد فانتشر الخوف والفرح بين أهل دمشق، وعندما تحقق النصر للمماليك في نهاية المعركة، قاموا بتسريح الحمام الزاجل المحلى بالعطور إلى سائر البلاد<sup>53</sup>، ولا يختلف الحال كذلك مع كتب البريد التي يحملها البريدية، حيث كانت هي الأخرى تخلق بالمسك والعطور الزكية، بدليل ما حدث في سنة 691هـ/1292م حيث قام الأشرف خليل بن قلاوون بفتح قلعة الروم، فتم إرسال الكتب على أيدي البريدية إلى دمشق وغيرها من سائر البلاد، وقد جاء فيها "وسار بمخلقات البشائر في كل قطر بريده..."<sup>54</sup>، كما قال ابن عبد الظاهر شعراً بتلك المناسبة:

وأبشر وبشر والى سائر الأمصار  
وأبشر وبشر والى سائر الأمصار  
وأبشر وبشر والى سائر الأمصار  
وأبشر وبشر والى سائر الأمصار

وعلى أية حال واصل جهاز البريد نشاطه في عهد المنصور قلاوون، ففي سنة 684هـ/1285م خرج السلطان المنصور على رأس الجيش المملوكي لفتح حصن المرقب، فقام بحصاره مدة ثمانية وثلاثين يوماً حتى سقط في يده، فخرج الحمام الزاجل حاملاً بطائق هذا الفتح إلى سائر أنحاء البلاد، ثم تبعه خروج البريدية بتلك الأخبار لتأكيد صحتها، فأقيمت الزينة في أنحاء الدولة المملوكية<sup>56</sup>.

وفي عهد الأشرف خليل بن قلاوون لعب جهاز البريد دوراً فعالاً في إسقاط عكا آخر القلاع الصليبية ببلاد الشام، فحين عزم الأشرف على فتحها في سنة 690هـ/1291م - تنفيذاً لرغبة والده قبل وفاته - خرجت أوامره على أيدي البريدية إلى نائب السلطنة بدمشق للقيام بتجهيز الأسلحة الجماعية الثقيلة مثل المجانيق وغيرها من الآلات التي تستخدم في الحصار، وطلب

<sup>50</sup> اليوناني، ذيل مرآة الزمان، ج4، حيدر آباد 1961، ص94-95؛ بيبرس الدودار، التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبدالحاميد صالح حمدان، القاهرة 1987م، ص101-102؛ الدوداري، كنز الدرر، ج8، ص244؛ النويري، نهاية الأرب، ج31، ص32؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص295؛ ابن بهادر، فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 4977 تاريخ)، ورقة 327؛ المقرئ، السلوك، ج1 ق3، ص691-692، ص696-697؛ العيني، عقد، ج2، ص272؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج7، ص219-220؛ الحلبي، أعلام النبلاء، ص333-334.

<sup>51</sup> شافع بن علي، الفضل الماثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، بيروت 1998م، ص73-74.  
<sup>52</sup> بيبرس الدودار، زبدة الفكرة، ج9، ص183؛ التحفة المملوكية، ص101؛ الدوداري، كنز الدرر، ج8، ص244؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ص331؛ المقرئ، السلوك، ج1 ق3، ص696؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج7، ص220؛ Syedah

Sadeque, Development of Al-Barid, P.182

<sup>53</sup> الدوداري، كنز الدرر، ج8، ص245؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ص331.  
<sup>54</sup> الدوداري، كنز الدرر، ج8، ص327؛ النويري، نهاية الأرب، ج31، ص233؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج8، ص139؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ص388.

<sup>55</sup> ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة 1961م، ص82.

<sup>56</sup> الجزري، حوادث الفترة بين سنتي 682-687هـ، نشر وتعليق أولرخ هارمان، فرايبورج 1969م، ص52.

منه التوجه بها صوب مدينة عكا، التي لم تستطع الصمود أمام ذلك الحصار المحكم فسقطت في يد المماليك<sup>57</sup>، وخرج الحمام الزاجل ببطائق هذا الفتح إلى دمشق<sup>58</sup>، ثم تبعه خروج البريدية بالبشرى إلى سائر نواحي البلاد<sup>59</sup>، وفي نفس السنة - أي في سنة 690هـ/1291م - أصدر الأشرف خليل - أثناء إقامته بدمشق - وأمره إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاعي نائب السلطنة بدمشق بالتوجه لحصار برج صيدا فقام بحصاره حتى سقط في يده، ثم عاد إلى دمشق على خيل البريد كي يلحق بالسلطان قبل خروجه إلى القاهرة ليخبره بهذا الفتح<sup>60</sup>، ثم لم يلبث طويلاً حتى هبط الحمام الزاجل بالبطائق التي تتضمن فتح مدينتي بيروت وعتليت<sup>61</sup>.

وفي أثناء فترة حكم الناصر محمد بن قلاوون الثانية، وقعت معركة من أعظم المعارك الحربية في تاريخ دولة المماليك البحرية ضد المغول، وهي معركة "مرج الصفر" وذلك في سنة 702هـ/1303م، ولعب فيها جهاز البريد دوراً فعالاً وحيوياً، فبعد أن ورد البريد في سنة 699هـ/1299م حاملاً أخبار الهزيمة القاسية التي مني بها الجيش المملوكي<sup>62</sup> في معركة "وادي الخزندار" التي أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن جهاز الاتصالات هو اللبنة الأولى في إحراز النصر، فقبل تلك المعركة حدث اضطراب في وسائل نقل الأخبار عند المماليك بحيث لم يكن لديهم أية معلومات عن الجيش المغولي حتى أنه "لم يكن أحد يأتي بخبر شاف، بل صارت الأخبار مضطربة"<sup>63</sup>، وأستغل المغول تلك الفرصة وأخذوا عن طريق المكر والخديعة يبثون الأخبار الكاذبة عن هروبهم ورحيلهم إلى بلادهم، وغيرها من تلك الحيل التي دخلت على الجيش المملوكي فمني بهزيمة منكرة<sup>64</sup>، وأخذ الناصر محمد يستعد من جديد للنثار لهزيمته السابقة عن طريق نشاط الجهاز الإعلامي في حصد كل صغيرة وكبيرة عن الجيش المغولي، ففي سنة 702هـ/1303م وصلت الأخبار على أيدي البريدية من حلب بأن غارات خان ملك المغول جهز جيشاً جراراً للزحف نحو بلاد الشام، فأصيب الناس في دمشق بحالة من الخوف والفرع لسابق معرفتهم بأفعال المغول الوحشية، وشرعوا في مغادرة المدينة بأقصى سرعة، هنالك لعب الحمام الزاجل دور العامل النفسي في تهدئة نفوس كافة طبقات الشعب، ونشر الطمأنينة بينهم ففي أثناء فترة الاستعداد للمعركة هبط الحمام الزاجل بالبطائق من الناصر محمد إلى أهل دمشق يخبرهم فيها بوصول الجيش إلى مرج الصفر، وأوصاهم بحفظ قلعة دمشق وأسوارها، وطلب منهم الابتهاال إلى الله بالدعاء لهم بالنصر ثم تلاقى الجيشان في معركة حامية الوطيس، وأنتصر المماليك انتصاراً حاسماً، وبعث الناصر محمد ببطاقة أخرى على جناح الحمام الزاجل إلى دمشق تخلى فيها عن صفة الإيجاز، وأسهب في وصف المعركة قائلاً: بأنها وقعت من عصر يوم السبت، إلى الساعة الثانية من نهار الأحد، وأن الجيش المملوكي كان يعمل السيف في رقاب المغول ليلاً ونهاراً، حتى أنهم لجأوا للاعتصام بالجبال، إلا أنها لم تكن كافية لحمايتهم من بطش المماليك<sup>65</sup>، وبعد أن أكتمل النصر للمماليك خرجت البشرى على أيدي البريدية، ثم أعقبهم خروج الحمام الزاجل ببطائق النصر إلى سائر القلاع المملوكية، ودمشق، وغزة<sup>66</sup>، ومن غزة إلى قطب حيث عهد وإليها إلى أحد البريدية بنقل بطاقة الحمام الزاجل على خيل البريد إلى قلعة الجبل بالقاهرة، التي قامت بدق بشارت النصر على الفور<sup>67</sup>.

ومع اقتراب دولة المماليك البحرية من نهايتها، بدأ التدهور يتطرق إلى هذا الجهاز، وأخذ دوره يتقلص تدريجياً في نقل أخبار الغارات التي منيت بها الدولة إبان تلك الفترة، وهو ما عاد عليها بالوبال، خاصة مع ازدياد نشاط الصليبيين متمثلاً في القبارصة، وليس أدل على ذلك مما وقع من غزو مدينة الإسكندرية سنة 767هـ/1365م فقد طرق الصليبيون بزعامة ملك

<sup>57</sup> ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج13 ، ص316 ؛ ابن بهادر ، فتوح النصر ، ورقة 361؛ العيني ، عقد الجمان ، ج3 ، ص56،54.

<sup>58</sup> ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج8 ، ص119 .

<sup>59</sup> شافع بن علي ، الفضل المأثور ، ص178 .

<sup>60</sup> النويري ، نهاية الأرب ، ج31 ، ص212 ؛ صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب ، تحقيق لويس شيخو ، بيروت 1898م ، ص42؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج8 ، ص121 .

<sup>61</sup> ابن أبي الفضائل ، النهج السديد ص384.

<sup>62</sup> بيبيرس الدوادار ، التحفة الملوكية ، ص157.

<sup>63</sup> ابن أبي الفضائل ، النهج السديد ، ص470.

<sup>64</sup> الدوادار ، كنز الدرر ، ج9 ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، القاهرة 1960م ، ص16.

<sup>65</sup> الذهبي ، دول الإسلام ، ج2 ، تحقيق حسن إسماعيل مروة ، تقديم محمود الأرنؤوط ، بيروت 1999م ص235 ؛ العمري ، مسالك الأبصار في ممالك

الأبصار ، ج27 ، اصدار فؤاد سزكين ، فرانكفورت 1988م ، ص386 ؛ مجهول ، تاريخ سلاطين المماليك ، ج13 ؛ الصفدي ، أعيان العصر ، ج5 ،

ص85 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج14 ، ص25 ؛ العيني ، عقد ، ج4 ، ص242 ؛ دهمان ، ولاة دمشق في عهد المماليك ، دمشق 1984م ،

ص138-139.

<sup>66</sup> مجهول ، تاريخ سلاطين المماليك ، ص113 ؛ المقرئ ، السلوك ، ج1 ق3 ، ص936 ؛ ابن تغري بردى ، النجوم ، ج8 ، ص163 ؛ الصياد ، الشرق

، ص303 .

<sup>67</sup> مجهول ، تاريخ سلاطين المماليك ، ص114 .

قبرص أبواب تلك المدينة في يوم الأربعاء 20 محرم، في حين لم يصل خبر هذا الغزو إلى القاهرة إلا في يوم السبت 23 محرم ، وقد أتاح هذا التأخير في وسائل الاتصال، أن يطلق الصليبيون أيديهم بالسلب والنهب فيها لمدة أسبوع ، بحيث أن النجدة التي أرسلت إليها لم تجد الوقت الكافي للحاق بهم بعد أن غادروا المدينة فعليا<sup>68</sup>، وحينما حمل البريدية أخبار هذا الغزو إلى بلاد الشام، شرع نائبها في إلقاء القبض على النصارى وحبسهم بقلعتها ومصادرة أملاكهم<sup>69</sup>.

هذا وقد شهد عهد الأشرف شعبان عملية إعادة تنظيم لجهاز البريد بعد الكبوة التي ألمت به منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون، وعاد يمارس نشاطه من جديد ، ففي سنة 776هـ/1375م قام نائب السلطنة بدمشق بإرسال بطاقة على جناح الحمام الزاجل إلى الأشرف تتضمن خروج الجيش بحلب وقيامه بفتح بلاد سيل، والتي كثيراً ما تحالف صاحبها مع المغول، ثم وصلت أخبار هذا الفتح أيضاً على أيدي البريدية من قبل نواب السلطنة ، تأكيداً لصحة هذه الأخبار مما يبين مدى التعاون بين البريد البري وبيد الحمام الزاجل<sup>70</sup>.

ومن الجدير بالذكر أن البريد المزدوج قد ساهم أيضاً في إنقاذ بعض سلاطين المماليك من الوقوع في براثن المكر والخديعة التي قد يتعرضون لها من قبل أحد الملوك الأجانب، ففي سنة 703هـ/1304م تحيل ملك برشونة على الناصر محمد بن قلاوون، لأخذ أحد الأسرى الأجانب منه ، فأرسل من قبله رسولاً إليه بحجة طلب الشفاعة في النصارى بمصر، بالإضافة إلى العفو عن ذلك الأسير موهماً إياه بأن ذلك الأسير قد توفى أبواه ولم يتبق لرعايته سوى أخته - وكان كاذباً في أقواله فدخلت هذه الحيلة على الناصر محمد في أول الأمر، وقام فعلاً بإرسال ذلك الأسير بصحبة الرسول إلى الإسكندرية تمهيداً لرحيلهما، ولكن سرعان ما انكشفت هذه المؤامرة، فقام السلطان في الحال بإرسال الحمام الزاجل حاملاً البطائق إلى والي الإسكندرية يطلب منه منع الرسل من السفر، وردهم إلى الإسكندرية إن كانوا قد سافروا بالفعل، والقبض على الأسير المطلق سراحه لديهم، وإرساله إلى القاهرة على خيل البريد، ثم تبع إرسال بطاقة الحمام الزاجل، خروج أحد البريدية للأمر نفسه ، فوصلت البطاقة أولاً وتم منع الأسير من السفر ثم تولى البريدي إحضاره إلى السلطان بقلعة الجبل بالقاهرة<sup>71</sup>.

وفي بعض الأحيان نجد أن عمال جهاز البريد أنفسهم قد اشتركوا في فتح بعض الحصون المنيعه، ولعبوا فيه دوراً رئيساً، ففي سنة 673هـ/1274م كثر تعدي صاحب حصن القصير - أقوى حصون إنطاكية - على الهدنة والعهود الموقعة بينه وبين الظاهر بيبرس، فأصدر بيبرس أوامره بالقبض عليه تمهيداً لفتح ذلك الحصن، وندب لتلك المهمة الأمير علم الدين شقير مقدم البريدية بمصر، والأمير سيف الدين بلبان الدوادر المشرف على القصاد ، فخرج الاثنان متكررين في صورة شخصين متوجهان إلى صاحب القصير لإخباره بقدم الظاهر لزيارته، ففرح لذلك وقام بتجهيز ما يليق بالظاهر بيبرس وخرج للقائه، فلما اقترب منه قام بتقبيل الأرض بين يدي بيبرس، فجنم فوقه بلبان الدوادر وشقير البريدي وأركباه على أحد الخيول وتوجهها به إلى دمشق حيث حبس بقلعتها<sup>72</sup>.

كذلك لم يكتف جهاز البريد بنقل الأخبار المتعلقة بالغارات البرية على حدود المملكة، بل وجدت هناك بعض الغارات البحرية من قبل الصليبيين على سواحل الدولة، ففي سنة 698هـ/1299م طالع جهاز البريد الناصر محمد بن قلاوون بأخبار غارة بحرية من حوالى ثلاثين بطسة<sup>73</sup> على سواحل بيروت، كل واحدة منها تحتوي على سبعمائة مقاتل، وقد تجمع أهل البلدة لمقاتلتهم، ثم لعبت الظروف الجوية دورها حيث هبت على تلك المراكب رياحاً عاصفة جعلتها حطاماً وألقتها نحو الشاطئ<sup>74</sup>.

<sup>68</sup> النويرى السكندري ، الإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق: عزيز سوريال عطية ، الهند 1969، ج2 ، ص136 المقریزی ، السلوك ، ج3 ق1 ، ص104 ذكر المقریزی أن خبر الغزو وصل إلى الأمير بلبغا في يوم السبت 24 المحرم ، وأن دخول الصليبيين للمدينة كان يوم الأربعاء 21 المحرم .

<sup>69</sup> ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج4 ، ص323 .

<sup>70</sup> المقریزی ، السلوك ، ج3 ق1 ، ص237 ؛ نبيل محمد عبد العزيز ، الحمام الزاجل وأهميته في عصر سلاطين المماليك، المجلة التاريخية المصرية المجلد

22، 1975م، ص66.

<sup>71</sup> العيني ، عقد الجمان ، ج4 ، ص305-307 .

<sup>72</sup> شافع بن علي ، حسن المناقب ، ص156-157 .

<sup>73</sup> نوع من المراكب كبيرة الحجم ، تشتمل على عدة طبقات، وتتسع لما يقرب من سبعمائة مقاتل ، ولها أكثر من أربعين شرعاً، وكانت تستخدم في الحرب والتجارة انظر أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية ، ج1 ، ص215 ؛ النخيلي ، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الإسكندرية 1974م ، ص14 .

<sup>74</sup> ابن أبي الفضائل ، النهج السديد ، ص464-465 ؛ المقریزی ، السلوك ، ج1 ق3 ، ص875 .

وفي سنة 780هـ/1378م قصد الصليبيون مدينة طرابلس في غارة بحرية مكونة من عشرة مراكب، فوصلت أخبارها إلى المنصور على أيدي البريدية، وقد استبسل الأمير يلغا الناصري نائب طرابلس في محاربتهم حتى قتل منهم أعداداً ضخمة وولى الباقيون وجوههم شطر بلادهم بعد أن حاقت بهم هزيمة منكرة<sup>75</sup>.

وهكذا كان لنظام البريد الدور البارز في المعارك الحربية التي جرت في ذلك العصر ضد كلا من الصليبيين والمغول، وكان له أعظم الأثر في الانتصارات التي حققها الجيش المملوكي آنذاك؛ وهو ما حافظ على توطيد أركان الدولة المملوكية لفترة طويلة وحمى حدودها من غزو أعدائها.

#### الخاتمة:

أدى جهاز البريد دوراً مميزاً في الدولة الإسلامية منذ دخوله على يد معاوية بن أبي سفيان في الدولة الإسلامية بكل مراحلها ويكفي للتدليل على أهميته أنّ مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية تنبه- حين اقترب العباسيون من النصر - إلى أنه ارتكب خطأ فادحاً بإهماله للبريد.

وفي الدولة المملوكية فإنّ البريد سيحظى بعناية بالغة من السلطان الظاهر بيبرس فأنفق أموالاً عليه طائلة انعكست على سرعة إيصال الرسائل بأوقات قياسية، أما الدور الحقيقي والعملي لجهاز البريد فقد برز في الحروب ضد المغول والفرنجة التي كانت قد غصت بها فترة السلطان الظاهر بيبرس، وكان الحمام الزاجل هو الطرف المساعد وهو ما اصطلح على تسميته بـ (البريد المزدوج)، ما من شك في أنّ الانتصارات التي حققها المماليك سواء في عهد الظاهر بيبرس أو الأشرف خليل أو المنصور قلاوون لم تكن لتتم لولا نضوج جهاز البريد واكتماله بفعل الرعاية والانفاق التي حظي بها من السلاطين.

<sup>75</sup> المقریزی ، السلوك ، ج3 ق1 ، ص335 .

## المصادر

1. الأسدي، التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار ، تحقيق عبدالقادر طليمات ، القاهرة 1967.
2. ابن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، القاهرة.1311
3. ابن بهادر ، فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر ( مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 4977 تاريخ).
4. بيبيرس الدوادر، التحفة الملكية في الدولة التركية ، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان، القاهرة 1987م.
5. ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7 طبعة دار الكتب المصرية القاهرة ، 1950.
6. الجزري ، حوادث الفترة بين سنتي 682-687هـ، نشر وتعليق أولرخ هارمان ، فرايبيرج. 1969.
7. الحلبي، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، حلب 1984.
8. الدواداري ، كنز الدرر وجامع الغرر ، ج8 ، تحقيق : أولرخ هارمان ، القاهرة 1971
9. الدواداري ، كنز الدرر ، ج9 ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، القاهرة 1960.
10. الذهبي ، دول الإسلام ، ج2 ، تحقيق حسنة إسماعيل مروة ، تقديم محمود الأرنؤوط، بيروت. 1999.
11. السكندري، الإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية ، تحقيق: عزيز عطية ، الهند 1969.
12. شافع بن علي ، المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، تحقيق عبدالعزيز الخويطر ، الرياض. 1976.
13. مجهول ، الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور ، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري ، بيروت. 1998.
14. أبو شامة ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، مطبعة النيل القاهرة (1287-1288هـ)
15. ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر، تحقيق: أحمد حطيط ، فيسبادن 1983.
16. صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحريين من بنى الغرب ، تحقيق لويس شيخو ، بيروت. 1898.
17. الصفدي ، أعيان العصر وأعوان النصر ، ج2 ، إصدار فؤاد سزكين ، فرانكفورت. 1990
18. ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر سيدة صادق ، باكستان. 1956
19. مجهول، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ، القاهرة . 1961.
20. العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد سحبن شمس الدين ، بيروت. 1988
21. العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج1 ، تحقيق محمد أمين ، دار الكتب المصرية.
22. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر ، مج2 ج7، طبعة بيروت. 1961
23. ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات المعروف بتاريخ الدول والملوك ج8 ، تحقيق قسطنطين زريق ، نجلاء عز الدين ، بيروت. 1939
24. ابن أبي الفضائل ، تاريخ سلاطين المماليك أو النهج السديد الدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، نشره وترجمه للفرنسية وعلق عليه  
E.BLOUCHET, PATROLOGIA Oriental is, XII,XIVXXII, PARIS,.1919
25. ابن الفوطى ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، بغداد1351.
26. الفيومي، نثر الجمان في تاريخ الأعيان (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 1746 تاريخ).
27. القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج14 ، جزء طبعة المطبعة الأميرية بالقاهرة 1913-1918.
28. ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج14 ، ط القاهرة. 1358
29. مجهول ، تاريخ سلاطين المماليك ، تحقيق زيرشتين ، ليدن 1919.

30. المقريري، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1 ، ق2 ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة. 1934
31. مجهول ، الخطط المقريرية ، ج1 مطبعة النيل القاهرة. 1326
32. مجهول ، مختار الأخبار ، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان ، القاهرة 1993.
33. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة / ج9 تحقيق زبيدة عطا ، الرياض 1989.
34. مجهول، مسالك الأبصار في ممالك الأبصار، ج27، إصدار فؤاد سزكين ، فرانكفورت. 1988
35. النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق محمد عبدالهادي شعيرة ، مراجعة محمد مصطفى زيادة ، القاهرة 1990.

#### المراجع

1. أحمد عبدالرازق ، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ج1 القاهرة. 1990
2. إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، بيروت. 1981
3. الطراونة طه ، مملكة صفد في عهد المماليك ، بيروت. 1981
4. عاشور، فايد حماد، التنظيمات العسكرية المغولية والمملوكية ، رسالة دكتوراه غير منشورة بأداب عين شمس ، القاهرة 1972
5. علي ، إبراهيم ، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص ، القاهرة 1944.
6. فؤاد الصياد ، الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين ، الدوحة. 1987.
7. موير ، تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة: محمود عابدين ، سليم حسن ، القاهرة. 1990
8. نبيل محمد عبدالعزيز ، الحمام الزاجل وأهميته في عصر سلاطين المماليك ، المجلة التاريخية المصرية المجلد 22 ، . 1975
9. النخيلي ، السفن الإسلامية علي حروف المعجم ، الإسكندرية 1974.

#### المراجع الأجنبية

1. Thourau, *The Lion of Egypt Sultan Baybars, Trans.1; Holt, New York 1987.*
2. Fouad Abou Khaterm Shagar al\_ Dorr et Baibars Le Cairo 1951.
3. Mustafa, M. Ziada, *The Mamluk Sultans to 1293, in.3 Book of : Setton, A History of the Crusades, II, Pennsylvania 1969.*
4. Wiet *Histoire de la nation égyptienne, IV Paris 1937.*
5. Syedah Sadeque, *Development of Al-Barid, or Mail- post during the reign of Baybars I of Egypt (1260-1276).JASP,(1969)*
6. Wiet *Histoire de la nation, IV,P.436; Thoraum The Lion of Egypt , P. 103; Amitai Mongols and Mmluks.(1260-1281), Combridge 1995*
7. Popper, *Egypt and Syria under the Circassian Sultans (1382-1468),Systematic Notes, vol. I, Los Angles 1955*
8. Sauvaget, *La Post aux chevaux dans l'empire des mamelouksm Paris 1941.*
9. Ayalon, *On One of the Works of Jean Sauvaget, IOS, (I(1971)*